

المحاضرة السابعة: بيعة العقبة الأولى

في السنة الحادية عشر بعد البعثة، وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً، فلقوه بالعقبة، وهي العقبة الأولى، فبايعوا رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم على بيعة النساء (أي على نمطها في البنود التي بايع النساء عليها، أي إنه لم يبايعهم فيها على الحرب والجهاد، وكانت بيعة النساء ثاني يوم الفتح على جبل الصفا بعد ما فرغ من بيعة الرجال) وكان منهم: أسعد بن زرارة، ورافع بن مالك، وعبادة بن الصامت، وأبو الهيثم ابن التيهان. وقد روى عبادة بن الصامت خبر هذه المبايعة، فقال: كنا اثني عشر رجلاً، فقال لنا رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم: «تعالوا بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فأمره إلى الله إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه». قال عبادة بن الصامت: «فبايعناه على ذلك» فلما أرادوا الانصراف بعث رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم معهم مصعب بن عمير وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين، فكان يسمى مقرئ المدينة.

العبر والعظات:

لقد رأينا أن النبي صَلَّى الله عليه وسلم لم يكن يقصر الدعوة على قومه من قريش الذين لم يألوا جهداً في إذاقته كل أصناف المحن والمصائب. بل كان يدخل بين القبائل الآتية من خارج مكة من شتى الجهات والأطراف بمناسبة موسم الحج، فيعرض نفسه كدلال عليهم ويدعوهم إلى بضاعة الدين وكنز التوحيد، ويذهب ويجيء بينهم فلا يرى مجيباً له. روى أصحاب السنن أن رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم كان يعرض نفسه على الناس بالموسم فيقول: «هل من رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشا منعوني أن أبلغ كلام ربّي؟!» إحدى عشرة سنة، والرسول صَلَّى الله عليه وسلم (بأبي هو وأمي) يعاني من حياة لا راحة فيها ولا استقرار، تتربص قريش في كل دقيقة منها بقتله، وتصب عليه ألواناً من المحن والشدائد، فلا ينقص ذلك شيئاً من عزمته ولا يضعف شيئاً من قوته وسعيه. إحدى عشرة سنة، والرسول صَلَّى الله عليه وسلم يعاني من غربة هائلة مظلمة بين قومه وجيرانه وكافة الجماعات والقبائل المحيطة به، فلا ييأس ولا يضجر ولا يؤثر ذلك على شيء من أنسه برّبّه عزّ وجلّ. إحدى عشرة سنة من الجهاد والصبر المتواصل في سبيل الله وحده، هي الثمن والطريق إلى نشأة مدّ إسلامي زاخر عظيم ينتشر في مشرق العالم وغربه، تتساقط أمامه قوة الروم وتتهاوى بين يديه عظمة فارس، وتذوب من حوله قيم النظم والحضارات، ثمن الجهاد والصبر والتعب وخوض الشدائد، كان من السهل جداً على الله عزّ

وجلّ أن يقيم دعائم المجتمع الإسلامي بدونه. ولكن تلك هي سنّة الله في عباده، أراد أن يتحقق فيهم التّعبد له اختياراً، كما تحققت فيهم صفة العبودية له إجباراً. ولا يتحقق التّعبد بدون بذل الجهد، ولا يمحصّ الصادق من المنافق بدون عذاب أو استشهاد، وليس من العدل أن يكسب الإنسان الغنم دون أن يبذل على ذلك شيئاً من الغرم. من أجل ذلك كلف الله الإنسان بأمرين اثنين:

١- إقامة شرعة الإسلام ومجتمعه.

٢- السير إلى ذلك في طريق شائكة مجهدة غير معبدة.

والآن فلنتأمل في هذه الثمار التي أخذت تبدو على رأس إحدى عشرة سنة من دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام، وطبيعتها، وكيفية نموها:

أولاً: جاءت هذه الثمار المنتظرة من خارج قريش بعيدة عن قومه عليه الصلاة والسلام على الرغم من جواره معهم واحتكاكه بهم، فلماذا؟ قلنا لقد اقتضت حكمة الله الباهرة أن تسير الدعوة الإسلامية في سبيل لا تدع أي شك للمتأمل في طبيعتها ومصدرها، حتى يسهل الإيمان بها، ولا يقع أي التباس بينها وبين غيرها من الدعوات الأخرى. من أجل ذلك كان رسول الله صلّى الله عليه وسلم أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ومن أجل ذلك بعث في أمة من الأميين الذين لم يقتبسوا حضارة ولم يعرفوا بمدنية أو ثقافة معينة، ومن أجل ذلك جعله الله مثال الخلق الكريم والأمانة والنزاهة.

ومن أجل ذلك اقتضت حكمة الله عزّ وجلّ أن يكون أنصاره الأول من غير بيئته وقومه، حتى لا يظن ظان بأن دعوة الرسول صلّى الله عليه وسلم كانت في حقيقتها دعوة قومية حاكتها رغبات قومه وظروف بيئته. وهذا في الواقع من أجلّ الدلائل التي تكشف للمتأمل أن يدا إلهية تحوط حياة الدعوة النبوية وظروفها من كل جانب، كي لا توجد في أي جانب منها ثغرة لمطعن، يقوم به مشكك أو محترف غزو فكري. وهذا ما قاله واحد من الباحثين الأجانب أنفسهم، فقد جاء في كتاب حاضر العالم الإسلامي، نقلاً عن «دينه» قوله: «إن هؤلاء المستشرقين الذين حاولوا نقد سيرة النبي صلّى الله عليه وسلم بهذا الأسلوب الأوربي المحض، لبثوا ثلاثة أرباع قرن، يدققون ويمحصون بزعمهم، حتى يهدّموا ما اتفق عليه الجمهور من المسلمين من سيرة نبيهم، وكان ينبغي لهم بعد هذه التدقيقات الطويلة العريضة أن يتمكنوا من هدم الآراء المقررة، والروايات المشهورة من السيرة النبوية، فهل تسنّى لهم شيء من ذلك؟ الجواب: لم يتمكنوا من إثبات أقل شيء جديد، بل إذا أمعنا النظر في الآراء الجديدة التي أتى بها هؤلاء المستشرقون من فرنسيين وإنكليز وألمان وبلجيكيين وهولانديين، لا نجد إلا خلطاً وخبطاً، وإنك لترى كل واحد منهم يقرر ما نقضه غيره».

ثانيا: يتجلى لدى التأمل فيما سردناه من كيفية بدء إسلام الأنصار، أن الله عزّ وجلّ قد مهّد حياة المدينة وبيئتها لقبول الدعوة الإسلامية، وأنه كان في صدور أهل المدينة تهيؤ نفسي لقبول هذا الدين، فما هي مظاهر هذا التهيؤ النفسي؟ لقد كان سكان المدينة المنورة خليطا من سكانها الأصليين وهم العرب المشركون واليهود المهاجرون إليها من أطراف الجزيرة، وكان المشركون ينقسمون إلى قبيلتين كبيرتين إحداهما الأوس، والثانية الخزرج. وكان اليهود ثلاث قبائل: بني قريظة، وبني النضير، وبني قنيقاع.

ولقد احتال اليهود طويلا- كعادتهم- حتى زرعو الضغائن بين قبيلتي الأوس والخزرج، فراح العرب يأكل بعضهم بعضا في حروب طاحنة متلاحقة. ويقول محمد بن عبد الوهاب في كتابه (مختصر سيرة الرسول صلّى الله عليه وسلم) : «أن الحرب لبثت بينهم مئة وعشرين سنة». وفي غمار هذه الخصومة الطويلة حالف كل من الأوس والخزرج قبيلة من اليهود، فحالف الأوس بني قريظة، وحالف الخزرج بني النضير وبني قنيقاع، وكان آخر ما بينهم من المواقع موقعة بعث، وذلك قبل الهجرة بسنوات قليلة، وكان يوما عظيما مات فيه أكثر رؤسائهم. وفي أثناء ذلك، كان كلما وقع شيء بين العرب واليهود، هدد اليهود العرب بأن نبيا قد آن أوان بعثته وأنهم سيكونون من أتباعه، ويقتلونهم معه قتل عاد وإرم.

فهذه الظروف، جعلت لدى أهل المدينة تطلعا إلى هذا الدين، وعلقت منهم آمالا قوية به، عسى أن تتوحد بفضل صفوفهم ويعود فيلنتم شملهم وتذوب وتمحى أسباب الشقاق مما بينهم. ولقد كان هذا مما صنعه الله لرسوله، كما يقول ابن القيم في زاد المعاد: «حتى يمهد بذلك لهجرته إلى المدينة، حيث اقتضت حكمة الله أن تكون هي المنطلق للمد الإسلامي في أرجاء الأرض كلها» .

الثالث: في بيعة العقبة الأولى، كان قد تمّ إسلام عدد من كبار أهل المدينة، كما ذكرنا. فكيف كانت صورة إسلامهم؟ وما هي حدود مسؤولياتهم التي حملهم الإسلام إياها؟

لقد رأينا أن إسلامهم لم يكن مجرد نطق بالشهادتين، بل كان إسلامهم هو الجزم القلبي والنطق اللساني بهما، ثم التزاما بالبيعة التي أخذها رسول الله صلّى الله عليه وسلم عليهم، أن ينصبغ سلوكهم بالصبغة الإسلامية عن طريق التمسك بنظمه وأخلاقه وعامة مبادئه، أخذ عليهم أن لا يشركوا بالله شيئا، ولا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم، ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم، ولا يعصوا رسول الله صلّى الله عليه وسلم في أي معروف يأمرهم به.

وهذه هي أهم معالم المجتمع الإسلامي الذي بعث رسول الله صلّى الله عليه وسلم لإنشائه. فليست مهمته أن يلقي الناس كلمة الشهادة ثم يتركهم يرددونها بأفواههم وهم عاكفون على انحرافاتهم وبغيهم ومفاسدهم. صحيح أن الإنسان يصدق عليه اسم المسلم إذا صدّق بالشهادتين وأحلّ الحلال وحرّم الحرام وصدّق بالفرائض، ولكن

ذلك لأن التصديق بوحداية الله ورسالة محمد عليه الصلاة والسلام هو المفتاح والوسيلة لإقامة المجتمع الإنساني وتحقيق نظمه ومبادئه، وجعل الحاكمية في كل الأمور لله تعالى وحده. فحيثما وجد الإيمان بوحداية الله تعالى ورسالة نبيه محمد عليه الصلاة والسلام لا بدّ أن يتبعه الإيمان بحاكمية الله تعالى وضرورة اتباع شريعته ودستوره.

ومن أعجب العجب، ما يعمد إليه بعض الذين تأسروهم النظم والتشريعات الوضعية، ممن لا يريدون المجاهرة بنبذ الإسلام وإطراحه، حيث يحاولون أن يسلكوا مع خالق هذا الكون ومالكه مسلكا أشبه ما يكون بمسلك الصلح والمفاوضات. وسبيل المفاوضة عندهم، أن يقسموا مظاهر المجتمع بينهم وبين الإسلام، فلإسلام من المجتمع مساجده وسائر مظاهره العبادية، يحكم ضمن ذلك على الناس بكل ما يريد، ولهم منه نظمه وتشريعاته وأخلاقه يغيرون منها ويبدلون كما يريدون! ..

ولو أن المتألهين والبلغاة الذين أرسلت إليهم الرسل فكذبوا برسالاتهم تنبهوا لهذا الحلّ الطريف إزاء دعوتهم إلى الإسلام، لما توانوا عن الدخول فيه وإظهار الطواعية له، مادام أنه لا يكلفهم التنازل عن حاكميتهم ولا ترك شيء من قوانينهم وتنظيماتهم، ولما بخلوا في مقابل ذلك بكلمة يرددونها أو طقوس يتركون السبيل إليها. ولكنهم علموا أن هذا الدين يكلفهم أول ما يكلفهم الدخول في نظام وحكم جديدين، التشريع والحكم فيه إلى الله وحده، فمن أجل ذلك شاقوا الله ورسوله وعزّ عليهم أن يعلنوا إسلامهم لدعوة الله عزّ وجلّ.

وفي بيان هذه الحقيقة والتحذير من فهم الإسلام على أنه كلمات وعبادات فقط، يقول الله عزّ وجلّ: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ، يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا.

رابعا: ما من ريب أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم، كان هو المتكفل بعبء الدعوة إلى دين الله، إذ هو رسوله إلى الناس كافة فلا بدّ له من تبليغ دعوة ربّه. ولكن ماذا عن أولئك الذين يدخلون في الإسلام وعن علاقتهم بعبء هذه الدعوة؟

إنك لتجد الجواب على هذا، في إرسال الرسول صلّى الله عليه وسلم مصعب بن عمير مع أولئك الإثني عشر إلى المدينة بدعوة أهل المدينة إلى الإسلام وتعليمهم قراءة القرآن وأحكامه وإقامة الصلاة. ولقد انطلق مصعب بن عمير سعيدا بتلبية أمر الرسول عليه الصلاة والسلام، وراح يدعو أهل المدينة إلى الإسلام ويقرأ عليهم القرآن ويبلغهم أحكام الله، ولقد كان الرجل يدخل عليه وفي يده حربة يريد أن يقتله بها، فما هو إلا أن يتلو عليه شيئا من كتاب الله ويذكر له بعض أحكام الإسلام، حتى يلقي حربه ويتخذ مجلسه مع من حوله مسلما موحدا يتعلم

القرآن وأحكام الإسلام، حتى انتشر الإسلام في دور المدينة كلها ولم يكن بينهم حديث إلا عن الإسلام. وهل تعلم من هو مصعب بن عمير هذا؟!

إنه ذاك الذي كان أنعم غلام بمكة، وأجود شبانها حلّة وبهاء. فلما دخل الإسلام، طوى كل تلك الرفاهية وذلك النعيم، وانطلق في سبيل الدعوة الإسلامية من وراء رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتجرع كل شدة ويستعذب كل عذاب حتى قضى نحبه شهيدا في غزوة أحد، وليس له مما يلبسه إلا ثوب واحد، أرادوا أن يكفونوه به، فكانوا إذا غطوا به رأسه خرجت رجلاه وإذا غطوا رجليه خرج رأسه فأخبروا بذلك رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبكى للذي كان فيه من النعمة في صدر حياته، ثم قال: «ضعوه مما يلي رأسه واجعلوا على رجليه شيئا من الإذخر». فليست مهمة الدعوة الإسلامية وقفا على الرسل والأنبياء وحدهم، ولا خلفائهم وورثتهم العلماء الذين يأتون من بعدهم، وإنما الدعوة الإسلامية جزء لا يتجزأ من حقيقة الإسلام نفسه، فلا مناص ولا مفر لكل مسلم من القيام بعبئها مهما كان شأنه أو عمله واختصاصه، إذ حقيقة الدعوة إنما هي (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) وهو جماع معنى الجهاد كله في الإسلام، وأنت خبير أن الجهاد فرض من فروض الإسلام تستقر تبعته على كل مسلم.

بيعة العقبة الثانية

ثم إن مصعب بن عمير عاد إلى مكة في موسم العام التالي، ومعه جمع كبير من مسلمي المدينة، خرجوا مستخفين مع حجاج قومهم المشركين.

قال محمد بن إسحاق يروي عن كعب بن مالك: «فواعدنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العقبة من أوسط أيام التشريق. فلما فرغنا من الحج، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لها، نمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نتسلل تسلل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلا، ومعنا امرأتان من نساءنا: نسيبة بنت كعب، وأسماء بنت عمرو بن عدي. قال: فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبد المطلب، فتكلم القوم وقالوا: خذ منا لنفسك ولربك ما أحببت.. فتكلم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب في الإسلام ثم قال: «أبايكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم». فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: «نعم، والذي بعثك بالحق نبيا لنمنعك مما تمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة (أي السلاح كله) ورثاها كابرا عن كابر» .

فاعترض القول - والبراء يتكلم - أبو الهيثم بن التيهان فقال: «يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالا وإنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟» فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: «بل الدّم الدّم والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتهم وأسالم من سالمتم» وقد كان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيبا ليكونوا على قومهم بما فيهم، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيبا، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، فلما تخيرهم قال للنقباء: أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي» وكان أول من ضرب على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم البراء بن معرور ثم بايع القوم كلهم بعد ذلك.

فلما بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ارفضوا إلى رحالكم»، فقال له العباس بن عباد بن نفلة: «والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنمّيلن على أهل منى غدا بأسيا فنا»، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم» فرجعنا إلى مضاجعنا، فنمنا عليها حتى أصبحنا، فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش، فقالوا: يا معشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حيّ من العرب أبغض إلينا أن تتشب الحرب بيننا وبينهم منكم» فانبعث من هناك من مشركي قومنا يحلفون بالله: «ما كان من هذا شيء وما علمناه. وقد صدقوا، لم يعلموه. قال: «وبعضنا ينظر إلى بعض» ونفر الناس من منى، فتحرى القوم الخبر فوجدوا أن الأمر قد كان. فخرجوا في طلبنا فأدركوا سعد بن عباد بأذاخر (وهو موضع قريب من مكة) والمنذر بن عمرو - وكلاهما كان نقيبا - فأما المنذر فأعجز القوم فهرب، وأما سعد فأخذه، فربطوا يديه إلى عنقه بشراك رحله، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويجذبونه بجبهته، وكان ذا شعر كثير. قال سعد: فوالله إني لفي أيديهم يسحبونني، إذ أقبل إليّ رجل ممن كان معهم، فقال: «ويحك.. أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد؟» قلت: «بلى والله، لقد كنت أجير لكل من جبير بن مطعم والحارث بن أمية تجارهما وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادي»، قال: «ويحك فاهتف باسمهما»، قال ففعلت، فجاء مطعم بن عدي والحارث بن أمية فخلصاه من أيديهم» .

قال ابن هشام: «وكانت لبيعة الحرب حين أذن الله لرسوله في القتال شروطا سوى شرطه عليهم في بيعة العقبة الأولى. كانت الأولى على بيعة النساء، وذلك أن الله لم يكن أذن لرسوله صلى الله عليه وسلم في الحرب، فلما أذن الله له فيها وبايعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في العقبة الأخيرة على حرب الأحمر والأسود أخذ لنفسه واشترط على القوم لربه، وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة» .

قال عباد بن الصامت: «بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الحرب، على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول الحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة

لائم» . وكانت أول آية نزلت في الإذن بالحرب للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوله تبارك وتعالى: **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ**.

العبر والعظات:

هذه البيعة الثانية تتفق في جوهرها مع بيعة العقبة الأولى. فكل منهما إعلان عن الدخول في الإسلام أمام رسول الله، وأخذ للمواثيق والعهود على السمع والطاعة والإخلاص لدين الله، والانصياع لأوامر رسوله. إلا أننا نلاحظ فارقين مهمين جديرين بالملاحظة والدرس، بين كل من بيعة العقبة الأولى، وبيعة العقبة الثانية. **الفارق الأول:** أن عدد المبايعين من أهل المدينة في المرة الأولى كان اثني عشر أما عددهم في البيعة الثانية فقد كان بضعة وسبعين بينهم امرأتان. فقد عاد أولئك الاثنا عشر في السنة الأولى - ومعهم مصعب بن عمير - لا لينطوي كل على نفسه وينعزل في بيته، بلى ليبشر بالإسلام كل من كان حوله من رجال ونساء، يتلو عليهم قرآنه ويبين لهم أحكامه ونظامه. فمن أجل ذلك انتشر الإسلام تلك السنة في المدينة انتشارا عظيما حتى لم يبق دار إلا دخلها الإسلام، وأصبح حديث أهلها في عامة الأوقات عن الإسلام وخصائصه وأحكامه. وتلك هي وظيفة المسلم في كل عهد وفي كل مكان.

الفارق الثاني: أن البنود المنصوص عليها في البيعة الأولى، خالية عن الإشارة إلى الجهاد بالقوة، ولكنها في البيعة الثانية تضمنت الإشارة بل التصريح بضرورة الجهاد والدفاع عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والدعوة إلى دينه بكل وسيلة.

وسبب هذا الفارق أن أرباب البيعة الأولى انصرفوا وهم على موعد مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المكان ذاته في الموسم التالي، ليعودوا إليه بعدد أوفر من المسلمين ويجددوا العهد والمبايعة، فلم يكن ثمة ما يستوجب مبايعته على القتال، مادام أن الإذن به لم يأت بعد، وما دام أن هؤلاء المبايعين سيلتقون بعد عام مرة أخرى برسول الله.

لقد كانت البيعة الأولى إذن بيعة مؤقتة، بالنسبة لاقتصارها على تلك البنود فقط، وهي البنود التي بايع عليها النساء فيما بعد.

أما البيعة الثانية، فقد كانت الأساس الذي هاجر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة بناء عليه، ولذا فقد كانت شاملة للمبادئ التي ستتم مشروعيتها بعد الهجرة إلى المدينة، وفي مقدمتها الجهاد والدفاع عن الدعوة بالقوة، وهو حكم وإن لم يكن قد أذن الله بشرعيته في مكة ولكن الله عز وجل قد ألهم رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن ذلك سيشرع في المستقبل القريب.

ومن هنا تعلم أن مشروعية القتال في الإسلام لم تكن إلا بعد هجرته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الصحيح، وليس كما قد يفهم من كلام ابن هشام في سيرته أنه إنما شرع قبل الهجرة عندبيعة العقبة الثانية.

وليس في بنود تلك البيعة ما قد يدل على مشروعية القتال حينئذ، لأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما أخذ على أهل المدينة عهد الجهاد نظرا للمستقبل، عندما سيهاجر إليهم ويقيم بينهم في المدينة. والدليل على هذا ما سبق ذكره أن العباس بن عباد قال بعد البيعة: «والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيا فإنا» ، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لم تؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم» .

ومن المتفق عليه أن أول آية نزلت في الجهاد ومشروعيته هي قوله تعالى: **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ**، وقد روى الترمذي والنسائي وغيرهما عن ابن عباس قال: «لما أخرج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مكة، قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكن. قال ابن عباس: فأنزل الله عز وجل **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ** قال أبو بكر رضي الله عنه: فعرفت أن سيكون قتال» أما لماذا تأخرت مشروعية الجهاد بالقوة إلى هذه الفترة فللحكم التالية:

١- من المناسب أن يسبق القتال تعريف بالإسلام، ودعوة إليه وإقامة لحججه، وحل للمشكلات التي قد تقف في سبيل فهمه. ولا ريب أن هذه هي المراحل الأولى في الجهاد. ولذا كان القيام بتحقيقها فرض كفاية يشترك المسلمون في المسؤولية عنها.

٢- اقتضت رحمة الله بعباده أن لا يحملهم واجب القتال، إلى أن توجد لهم دار إسلام، تكون لهم بمثابة معقل يأوون إليه، ويلوذون به. ولقد كانت المدينة المنورة أول دار في الإسلام.